التناسب بين القسم المفرد وجوابه في القرآن الكريم

د . ناصر بن محمد آل عشوان

د. ناصر بن محمد آل عشوان

- عضو هيئة التدريس بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
- الأمين العام للجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه.
- حصل على درجة الماجستير من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بأطروحته: (علوم القرآن عند ابن حزم –جمعاً ودراسةً-).
- حصل على درجة الدكتوراه من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بأطروحته: (تحقيق كتاب أحكام القرآن للقشيري من أول الكتاب إلى نهاية تفسير سورة الأعراف)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا، أنزله بأفصح لسان، وأبلغ بيان، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحابته أجمعين . أما بعد:

فمن تأمل كتاب الله العزيز وجده محكم السرد، متقن السبك، بين كلماته، وجمله، وآياته، وسوره من الترابط والتناسق أبلغه .

ومن ذلك التناسب بين القسم وجوابه، فالله تعالى يقسم بما يشاء، فيقسم تعالى بذاته، أو باسم من أسمائه، أو بصفة من صفاته، أو بشيء من مخلوقاته، وفي مواضع يأتي المقسم به مفردًا، وفي مواضع أخرى يتعدد المقسم به .

ويختار – سبحانه - من ذلك ما يناسب جواب القسم، لمن تأمله وتدبره .

وهذا الجانب – أعني وجوه التناسب بين القسم وجوابه – يكشف وجهًا من وجوه إعجاز القرآن الكريم في أسلوبه ونظمه .

ولذا اخترت الكتابة في هذا الموضوع، ووسمته بـ

(التناسب بين القسم المفرد وجوابه) (١)

حدود البحث:

١. اقتصرت في هذا البحث على ما أقسم الله به، دون ما صدر من

(١) سأفرد (التناسب بين القسم المتعدد وجوابه) في بحث مستقل إن شاء الله .

أقسام على لسان رسله، أو ما سجل على لسان خلقه، فالمخلوق لا يقسم إلا بالخالق سبحانه، وأما الخالق فيقسم بما يشاء، وهنا تظهر المناسبة والارتباط .

٢. اقتصرت على القسم الظاهر دون المضمر ؛ لأن تقدير المقسم به في القسم المضمر لا يختلف .

خطة البحث:

قسمت البحث إلى مباحث، حسب المقسم به:

المبحث الأول: القسم بلفظ الجلالة .

المبحث الثاني: القسم بربوبية الله تعالى .

المبحث الثالث: القسم بالقرآن .

المبحث الرابع: القسم بعمر الرسول r .

المبحث الخامس: القسم بالسماء ذات الحبك .

المبحث السادس: القسم بالنجوم ومواقعها .

المبحث السابع: القسم بالعصر .

ثم ختمت البحث بخاتمة، ذكرت فيها بعض ما توصلت له خلال هذا البحث .

ثم أعقبتها بثبت للمصادر والمراجع .

المنهج المتبع:

أذكر الآية التي ورد فيها القسم، ثم أذكر المقسم به، والمراد به، ثم جواب القسم، والمراد به، ثم وجه التناسب بين القسم وجوابه .

وإن كـان في المـراد بالمقسـم بـه أو جوابـه خـلاف فـإني أذكـره، مبينًـا الصواب – في الغالب - .

ومن الله استلهم الصـواب، وهـو الموفـق والهـادي إلى سـواء السـبيل، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

المبحث الأول: القسم بلفظ الجلالة

أقسم تعالى بلفظ الجلالة (الله) في موضعين هما:

١ . قولـــه تعـــالى:M * + , - . / 0 2 3 4 5 6 L [النحل: ٥٦].

جواب القسم:

M 3 4 5 6 L أقسم تعالى على سؤال هؤلاء المشركين عما كانوا يفترون من الكذب على الله، أن له شريكًا .

وجه التناسب بين القسم وجوابه:

المقسم به لفظ الجلالة الدال على أنه سبحانه وتعالى المألوه المعبود، المستحق للعبادة دون ما سواه، وهؤلاء أشركوا معه غيره فيما يتقربون به من القربات إلى هذه الأصنام - التي لا تنفع ولا تضر - مع كون هذه الأرزاق من الله .

فناسب أن يقسم بإلوهيته لبيان استحقاقه للعبادة دون ما سواه .

ولكون ما فعله هؤلاء المشركون من الأمور المستغربة الداعية إلى التعجب من صنيعهم، أتى القسم هنا بالتاء للدلالة على كون هذا الصنيع مستغربًا، قال ابن عاشور: ((والقسم بالتاء يختص بما يكون المقسم عليه أمرًا عجيبًا ومستغربًا، فالإتيان في القسم هنا بحرف التاء مؤذن بأنهم يسألون سؤلاً عجيبًا بمقدار غرابة الجرم المسؤول عنه)) . (١)

---

(١) التحرير والتنوير: ١٤ / ١٨١ .

٢ . قوله تعالى: M تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ L [النحل: ٦٣] .

جواب القسم:

Mلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ L

المقسم عليه: إرسال الرسل إلى الأمم السابقة، وتكذيبهم لأنبيائهم، واتباعهم للشيطان كما هو حال قومك معك .

والمقصود بالقسم هنا هؤلاء المكذبين، وليس المقصود به رسول الله r ، فهو ليس في شك من ذلك .

وليس المقصود من القسم – أيضًا - إثبات إرسال الرسل إلى الأمم السابقة، فإن هذا أمر لا ينكره الكفار، وإنما المقصود من ذلك ذكر وجه الشبه بين إضلال الشيطان للمشركين، وإضلاله للأمم السابقة .

قال ابن عاشور: ((ووجّه الخطاب إلى النبي r لقصد إبلاغه إلى أسماع الناس، فإن القرآن منزل لهدى الناس، فتأكيد الخبر بالقسم منظور فيه إلى المقصودين بالخبر لا إلى الموجه إليه الخبر، لأن النبي r لا يشك في ذلك .

ومصب القسم هو التفريع في قوله تعالى: Mفَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ L .

وأما الإرسال إلى أمم من قبلهم فلا يشك فيه المشركون . وشأن التاء المثناة أن تقع في قسم على مستغرب، مصب القسم هنا هو المفرد بقوله تعالى: Mفَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ L لأن تأثير تزيين الشيطان لهم أعمالهم بعدما جاءهم من إرشاد رسلهم أمر عجيب.

وتزيين الشيطان أعمالهم كناية عن المعاصي، فمن ذلك عدم الإيمان بالرسل وهو كمال التنظير، ومنها الابتداعات المنافية لما جاءت به الرسل عليهم السلام ، مثل ابتداع المشركين البحيرة والسائبة، والمقصود: أن المشركين سلكوا مسلك من قبلهم من الأمم التي زين لهم الشيطان أعمالهم)) . [١]

وما ذكره ابن عاشور من أن المقصود من القسم بيان سلوك المشركين لطريق من سبقهم من الأمم التي زين لهم الشيطان، يؤيده سياق الآيات، حيث إن سياق الآيات يتحدث عن الشرك وصوره .

وجه التناسب بين القسم وجوابه:

المقسم به هو لفظ الجلالة، الدال على انفراد الله بالعبادة، واستحقاقه صرف جميع أنواع العبادات والقربات إليه دون ما سواه، وهؤلاء المشركون أشركوا بالله وكفروا به، واتبعوا الشيطان، مع إقامة الحجة عليهم بإرسال الرسل إليهم، كما هو حال من سبقهم من الأمم السابقة .

فناسب أن يقسم بلفظ الجلالة، لما تضمنه من إفراده بالعبادة .

وفي القسم بلفظ الجلالة، الذي هو اسم الله الأعظم من المهابة والتعظيم ما لا يخفى، فناسب أن يقسم به، لبث الخوف في هذه القلوب التي استمالها الشيطان، فكانت من أتباعه .

(١) التحرير والتنوير: ١٤ / ١٩٤ .

المبحث الثاني: القسم بربوبية الله تعالى

أقسم تعالى بربوبيته مضافة إلى رسوله r في ثلاثة مواضع، ومضافة إلى السماء والأرض في موضع واحد، ومضافة إلى المشارق والمغارب في موضع واحد.

أ. القسم بربوبية الله تعالى مضافة إلى المخاطب: رسول الله r .

١. قال تعالى: M فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا ´ µ ¶ ¸ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ L . [النساء: ٦٥].

جواب القسم: قوله تعالى: Mلَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا ´ µ ¶ ¸ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا L .

نفي الإيمان عن الخلق حتى يحكموا رسول الله r فيما شجر بينهم، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضى رسوله r ويسلموا تسليمًا.

وجه التناسب بين القسم وجوابه:

أقسم سبحانه بربوبيته، ولفظ الرب يقتضي الإصلاح والرعاية[1]، ومن ضمن ذلك تشريع ما يصلح الناس من أحكام، ومنها ما جاء به الرسول r .

وأضاف هذه الربوبية إلى رسوله r رداً على من طعن في مقامه r ولم يرض بتحكيمه.[2]

---

(١) انظر: جامع البيان: ١ / ١٤٢، المفردات: ١٨٩.

(٢) سواء قلنا بأن سبب نزول هذه الآية قصة الزبير في خصومته مع الأنصاري، أم أنها نزلت فيمن يريد التحاكم إلى الطاغوت. انظر في سبب نزولها: جامع البيان: ٧ / ٢٠١، أحكام القرآن لابن =

وقد ذكر الشيخ ابن عثيمين – رحمه الله – وجهًا قريبًا من هذا، حيث قال: ((وتأمل أيضا المناسبة بين المقسم به و المقسم عليه، فالمقسم به ربوبية الله لنبيه r ، والمقسم عليه: هو عدم الإيمان إلا بتحكيم النبي r تحكيمًا تامًا يستلزم الانشراح و الانقياد والقبول، فإن ربوبية الله لرسوله تقتضي أن يكون ما حكم به مطابقًا لما أذن به ربه ورضيه، فإن مقتضي الربوبية أن لا يقره على خطأ لا يرضاه له)) .[1]

٢ . قال تعالى: M وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ! " # $ % & ' ( ) * + , L [الحجر: ٨٩-٩٣] .

جواب القسم:

قوله تعالى: M ' ( ) * + , L .

من العلماء من جعل السؤال متوجها إلى المقتسمين[2] الذين جعلوا

= العربي: ١ / ٥٧٨، الجامع لأحكام القرآن: ٦ / ٤٤٠، تفسير القرآن العظيم: ١ / ٥٢٠، التحرير والتنوير: ٥ / ١١١ .

(١) رسالة في زكاة الحلي: ١٨ .

(٢) اختلفت أقوال المفسرين في المراد بالمقتسمين ومردها إلى ثلاثة أقوال، الأول: أن المقتسمين هم رهط من قوم صالح، تقاسموا على تبييته وأهله، وعلى هذا فيكون الاقتسام مأخوذا من القسم بمعنى اليمين . الثاني: أهل الكتاب، سموا بذلك لأنهم آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعضه، أو لأنهم كانوا يقولون مستهزئين: هذه السورة لي، وهذه السورة لك . الثالث: جماعة من كفار قريش، اقتسموا القرآن، فجعلوا بعضه شعرا، وبعضه كهانة، وبعضه سحرا، وبعضه أساطير الأولين، وعلى هذين القولين يكون الاقتسام من التقسيم .

=

القرآن عضين [١] [٢] .

وذهب بعض أهل العلم إلى أن الآية عامة في سؤال الجميع - الكافر والمؤمن - على حد سواء، قال ابن عطية في تفسير هذه الآية: ((ضمير عام، ووعيد محض يأخذ كل أحد منه بحسب جرمه وعصيانه، فالكافر يسأل عن (لا إله إلا الله)، وعن الرسل، وعن كفره وقصده، والمؤمن العاصي يسأل عن تضييعه، والإمام عن رعيته، وكل مكلف عما كلف به)) . [٣]

والذي يدل عليه سياق الآيات القول الأول، حيث أمر الله تعالى رسوله r

---

= وقد ذهب ابن جرير إلى عموم الآية، وذهب ابن عطية والشنقيطي إلى تضعيف القول الأول، واختار الشنقيطي أن الآية تشمل القولين الأخرين، وإن كانت القرينة في الآية تؤيد الثالث، كذا قال الشنقيطي .

انظر: جامع البيان: ١٤ / ١٢٩، المحرر: ٨ / ٣٥٥، أضواء البيان: ٣ / ١٩٧ .

(١) إما أن تكون مأخوذة من قولهم: عضيت الشيء تعضية، إذا فرقته، فيكون المعنى: أنهم فرقوا القول في القرآن، إذ جعلوه شعرا، وسحرا، وكهانة، وأساطير الأولين .

وإما أن يكون معناها: قولهم بأن القرآن سحر ، فالعَضه بلسان قريش السحر .

وإما أن يكون المعنى: أنهم عضهوا القرآن وبهتوه فقالوا هو: شعر، وسحر، وكهانة، ونحو ذلك، مأخوذا من قولهم: عضهت الرجل أعضهه عضها: إذا بهته، وقذفته ببهتان .

وهذه المعاني متقاربة، كما ذكر ذلك ابن جرير . انظر: معاني القرآن للفراء: ٢ / ٩٢، تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: ٢٣٩، جامع البيان: ١٤ / ١٣٤، المحرر: ٨ / ٢٥٦ .

(٢) انظر: جامع البيان: ١٤ / ١٣٩ .

(٣) المحرر الوجيز: ٨ / ٣٥٧ . وممن ذهب إلى هذا القرطبي في تفسيره: ١٢ / ٢٥٩، والرازي في تفسيره: ١٩ / ١٦٩، وأبو حيان في تفسيره: ٦ / ٤٩٧، والشوكاني في تفسيره: ٣ / ١٦٣ .

أن يصدع برسالة ربه، وأن يعرض عن المشركين، وأخبر تعالى رسوله r أنه قد كفاه المستهزئين، قال تعالى: M . / 0 1 2 3 4 5 6 7 8 9 : ; < = > @ A B C D E F G H I L [الحجر: ٩٤-٩٧] .

وجه التناسب بين القسم وجوابه:

أن في قول المكذبين وزعمهم أن القرآن شعر، وسحر، ونحو ذلك مما قالوا، فيه طعن في القرآن الكريم، وفي رسول الله r المبلغ لهذا القرآن .

فأقسم الله تعالى بروبيته لرسوله r ، والربوبية تقتضي اختيار الأصلح للعباد، وتقتضي الرعاية، والتدبير، والدفاع عن رسول الله r .

قال البقاعي: ((فتسبب عن فعلهم هذا أنا نقسم بالموجد لك، المدبر لأمرك، المحسن إليك بإرسالك لنسألنهم أجمعين)) .[1]

وقال ابن عاشور: ((ووصف الرب مضافا إلى ضمير النبي r إيماء إلى أن في السؤال المقسم عليه حظا من التنويه به، وهو سؤال الله المكذبين عن تكذيبهم إياه سؤال رب يغضب لرسوله r)) .[2]

٣ . قال تعالى: M C D E F G H I J L [مريم: ٦٨] .

جواب القسم:

M D E F G H I J L

(١) نظم الدرر: ٤ / ٢٣٧ .

(٢) التحرير والتنوير: ١٤ / ٨٧ .

أن هؤلاء المنكرين للبعث والنشور سيحشرون ويجمعون مع أوليائهم من الشياطين، وسيحضرون حول جهنم جثيًا على ركبهم .[١]

وجه التناسب بين القسم وجوابه:

المقسم به هو الرب سبحانه وتعالى، ومن مقتضيات الرب: تربية الناس، والقيام بمصالحهم وشؤونهم الدنيوية والأخروية، ومنها: البعث، والجزاء .

وفي إضافة المقسم به إلى رسوله r انتصار لرسوله، ورد على المستهزئين به، حيث إن سياق الآيات يشعر باستهزاء هؤلاء المنكرين بالرسول r ، وتكذيبهم لما أخبربه، قال تعالى: M / 0 1 2 3 4 5 6 L [مريم: ٦٦] .

قال البقاعي: ((ولما كان كلام الكافر صورته صورة الاستفهام، وهو جحد في الحقيقة وإنكار، وكان إنكار المهدَّد لشيء يقتدر عليه المُهدد سبباً لأن يحققه له مقسماً عليه، قال تعالى مجيباً عن إنكاره، مؤذناً بالغضب عليهم بالإعراض عنهم، مخاطباً لنبيه r تفخيماً لشأنه، وتعظيماً لأمره: M C L المحسن إليك بالانتقام منهم)) .[٢]

ب . القسم بربوبية الله للسماء والأرض:

قال تعالى: M ~ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ L [الذاريات: ٢٣] .

(١) انظر: جامع البيان: ١٥ / ٥٨٧ .

(٢) نظم الدرر: ٤ / ٥٥١، وانظر: مفاتيح الغيب: ٢١ / ٢٠٦، وإرشاد العقل السليم: ٥ / ٢٧٥، والتحرير والتنوير: ١٦ / ١٤٦ .

جواب القسم:

Mﮋإِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ L .

وفي عود الضمير في (إنه) أربعة أقوال:

الأول: عوده للقرآن . الثاني: إلى الرسول r . الثالث: ما ذكر في الآية السابقة من أمر الرزق، وما وعدوا به . الرابع: ما وعدوه من الجزاء، والبعث والنشور . [1]

والصواب، القول الرابع، وهو الذي يظهر من سياق الآيات، وأغراض السورة، فقد افتتحت السورة بالإقسام على وقوع البعث، وكذا ما بعدها من الآيات هو حديث عن البعث والنشور . [2]

وسيأتي في بيان تناسب القسم ما يؤيد هذا القول .

وجه التناسب بين القسم وجوابه:

في القسم بربوبية الله تعالى إشارة إلى ما تقتضيه ربوبيته من: تربية الناس، والقيام بمصالحهم، وبكل ما من شأنه نفعهم دنيا و أخرى، ومن أعظم ما تستقيم به حياتهم: الإيمان بالبعث، والجزاء .

وفي القسم بربوبيته تعالى مضافة إلى السموات والأرض: أوضح دليل

---

(١) انظر: جامع البيان: ٢١ / ٥٢٣، النكت والعيون: ٥ / ٣٦٨، البحر المحيط: ٩ / ٥٥٢،فتح القدير: ٥ /٩٨.

(٢) وقد اختار هذا القول: ابن كثير، والقاسمي، والسعدي، وابن عاشور . انظر: تفسير القرآن العظيم: ٤ / ٢٣٥، محاسن التأويل: ١٥، ١٩٨، تيسير الكريم الرحمن: ٧٥٢، التحرير والتوير: ٢٦ / ٣٥٥ .

على صدق ما يوعدون به، من البعث والجزاء، ولذا مهد قبل هذا القسم بالإشارة إلى شيء من آيات الله الدالة على قدرته في الأرض، والسماء، والأنفس . (١)

ومما يؤكد أن الإقسام برب السموات والأرض فيه دليل على البعث: ما ذكره تعالى في مواضع من كتابه من الاستدلال بخلق السموات والأرض على قدرته على البعث: قال تعالى: M **لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ** © **ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** L [غافر: ٥٧]، وقال تعالى: M **أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ** ´ ¦ ¶ ¸ **ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ** L [يس: ٨١] .

ج . القسم بربوبية الله للمشارق والمغارب:

قال تعالى: M ! " # $ % & ' ( ) * + , - . /
0 L [المعارج: ٤١] .

قال ابن القيم: ((أقسم سبحانه برب المشارق والمغارب، وهي إما مشارق النجوم ومغاربها، أو مشارق الشمس ومغاربها، أو أن كل موضع من الجهة مشرق ومغرب . فلذلك جمع في موضع، وأفرد في موضع، وثنى في موضع آخر)) . (٢)

---

(١) أشار إلى شيء من ذلك الفراهي: إمعان في أقسام القرآن: ٨٧ .

(٢) التبيان في أيمان القرآن: ٢٨٨ . وانظر: المحرر الوجيز: ١٥ / ١٠٧، ودفع إيهام الاضطراب: ٢٧ .

جواب القسم:

. L 0 / . - , + *) (' &M

أقسم تعالى بربوبيته للمشارق والمغارب على قدرته على تبديلهم بخير منهم، وأنه لا يفوته شيء من ذلك، ولا يمتنع عليه .

وقد اختلف المفسرون في المراد بالتبديل في قوله: M + , - L .

فذهب ابن جرير إلى أن المراد بالتبديل بخير منهم: الإتيان بأناس أطوع منهم. (١)

وقال ابن القيم: ((فحيث وقع التبديل بخير منهم فهو إخبار عن قدرته على أن يذهب بهم، ويأتي بأطوع وأتقى له منهم في الدنيا)) . (٢)

أما القول الثاني في معنى الآية: أنهم يعادون يوم القيامة بأبدان خير من أبدانهم .

(١) انظر: جامع البيان: ٢٣ / ٢٨٢، وهذا مذهب جمهور المفسرين: المحرر الوجيز: ١٥ / ١٠٨، الجامع لأحكام القرآن: ٢١ / ٢٤٥، البحر المحيط: ١٠ / ٢٧٧ .

(٢) التبيان في أيمان القرآن: ٢٩٠، ٢٩١ . ومن الملاحظ أن ابن القيم في موضع آخر ذهب إلى أن المراد: إعادتهم بعد موتهم، حيث يقول: وأما سورة (سأل سائل) فإنه أقسم سبحانه على عموم قدرته وكمالها، وصحة تعلقها بإعادتهم بعد العدم، فذكر المشارق والمغارب بلفظ الجمع ؛ إذ هو أدل على المقسم عليه، سواء أريد مشارق النجوم ومغاربها، أو مشارق الشمس ومغاربها، أو كل جزء من جهتي المشرق والمغرب، فكل ذلك آية ودلالة على قدرته تعالى على أن يبدل أمثال هؤلاء المكذبين، وينشئهم فيما لا يعلمون، فيأتي بهم في نشأة أخرى، كما تأتي الشمس كل يوم من مطلع وتذهب في مغرب . [التبيان في أيمان القرآن: ٢٨٩] .

وهذا ما ذهب إليه ابن كثير، وهو رأي السعدي، واختيار ابن عاشور . [1]

ويمكن أن يقال بأن ما ذكره أصحاب القول الثاني نتيجة للقول الأول، فإن من كان قادرًا على الذهاب بهؤلاء، والإتيان بخير منهم في الدنيا، قادر على إحيائهم مرة أخرى .

وجه التناسب بين القسم وجوابه:

على القول الأول يكون وجه التناسب: أن في القسم برب المشارق والمغرب دلالة على قدرة الله سبحانه على هذا التبديل، فإن معنى ربوبيته للمشارق والمغارب: ربوبيته للعالم كله .

- وأما على القول الثاني: فإن الله أقسم بربوبيته للمشارق والمغارب، وهذه الربوبية تقتضي البعث .

وفي إضافة ربوبية الله تعالى إلى المشارق والمغارب إشارة إلى البعث من حيث: تشبيه شروق الشمس بعد غروبها بالإحياء بعد الموت . [2]

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم: ٤ / ٤٢٣ . وذهب إلى هذا الرأي: ابن القيم –هذا الذي يفهم من كلامه السابق انظر الحاشية السابقة -، تيسير الكريم الرحمن: ٨٢٢ ، التحرير والتنوير:٢٩ / ١٨٠ .

(٢) أشار إلى هذا الوجه: ابن القيم، وابن عاشور . انظر: التبيان في أيمان القرآن: ٢٨٩، التحرير والتنوير: ٢٩ / ١٧٩ .

المبحث الثالث: القسم بالقرآن.

أقسم تعالى بالقرآن في مواضع من كتابه الكريم:

١ . القسم بالقرآن موصوفًا بالحكيم:

قال تعالى: M < = > ? @ A B C L [يس: ١-٣] .

أقسم تعالى بالقرآن [١] موصوفًا بـ (الحكيم)، وهذا الوصف يحتمل أن يكون بمعنى: مُحكِم، أي: مُتقن للأشياء، أو بمعنى: مُحكَم، فهو محكم متقن، لا يتعرض لبطلان وتناقض، وكذلك أُحكم في نظمه ومعانيه فلا يلحقه خلل، أو بمعنى: حاكم، لوجوب الرجوع إليه . وهذه المعاني كلها محتملة. [٢]

---

(١) هناك من أهل العلم من ذهب إلى أن المقسم به هو (يس)، وهو مروي عن ابن عباس، وعكرمة.

انظر: جامع البيان: ١٩ / ٣٩٨، الجامع لأحكام القرآن: ١٧ / ٤١٠ .

والصواب أن (يس) وغيره من الحروف المقطعة التي أبتدأ الله بها تسعا وعشرين سورة من سور القرآن الكريم، أنها حروف مفردة، وأنها من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه، وهذا ما اختاره جمع من المحققين .

انظر: تفسير القرآن العظيم: ١ / ٣٧، التبيان في أيمان القرآن: ٢٩٩، فتح القدير: ١ / ٢٦، أضواء البيان: ٣ / ٥، تفسير سورة يس للشيخ ابن عثيمين: ٨ .

(٢) انظر معاني وصف القرآن بالحكيم: الجامع لأحكام القرآن: ١٧ / ٤١٠، البرهان في علوم القرآن: ١ /٣٧٦، الإتقان في علوم القرآن: ١ / ١٤٧، التحرير والتنوير: ٢٣ / ٣٤٥، تيسير الكريم الرحمن: ٦٣٨، تفسير سورة يس لابن عثيمين: ١٠ .

جواب القسم:

L C B A M

أقسم تعالى على صدق رسوله r فيما أخبر به، وعلى أنه من جملة رسل رب العالمين .

وجه التناسب بين القسم وجوابه:

وجه التناسب ظاهرٌ بينٌ، فهو إقسام بدليل صدقه r على صدقه فيما أخبر به.

يقول الشيخ السعدي: ((ولا يخفى ما بين المقسم به، وهو القرآن الحكيم، وبين المقسم عليه، وهو رسالة الرسول محمد r من الاتصال، وأنه لو لم يكن لرسالته دليل ولا شاهد إلا هذا القرآن الحكيم لكفى به دليلاً وشاهدًا على رسالة محمد، بل القرآن العظيم أقوى الأدلة المتصلة المستمرة على رسالة الرسول فأدلة القرآن كلها أدلة لرسالة محمد r)). [(١)]

وتأمل كيف أقسم بالقرآن موصوفًا بالحكيم، فمع كون القرآن شاهدًا على صدق رسالة محمد r ، إلا أن في وصف القرآن بالحكيم دليل على صدق رسول الله r .

فمن معاني (الحكيم) المتقن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فلا تناقض فيه ولا تعارض، محكم النظم والمعاني لا يلحقه خلل .

ومن معاني (الحكيم) أيضاً كونه متضمنًا للحكمة، فهو حكيم في أحكامه وتشريعاته، فأحكامه كلها عدل، موافقة للفطرة والعقل السليم .

---

(١) تيسير الكريم الرحمن: ٦٣٨، وانظر نظم الدرر للبقاعي: ٦ / ٢٤٠ .

ومن تأمل هذا أيقن أنه من لدن حكيم خبير، وأنه لا يمكن أن يكون من كلام البشر، فتعين أن يكون r مرسل من قبل ربه، وشاهده على ذلك هذا الكتاب الحكيم .

قال أبو السعود: ((وفي تخصيص القرآن بالإقسام به أولاً، وبوصفه بالحكيم ثانيًا، تنويه بشأنه، وتنبيه على أنه كما يشهد برسالته r ، من حيث نظمه المعجز المنطوي على بدائع الحكم، يشهد بها من هذه الحيثية أيضًا، لما أن الإقسام بالشيء استشهاد به على تحقيق مضمون الجملة القسمية، وتقوية لثبوته، فيكون شاهدًا به ودليلاً عليه قطعًا)) . (١)

٢ . القسم بالقرآن موصوفًا بذي الذكر.

قال تعالى: M ! ' # $ % L [ص: ١].

أقسم سبحانه بالقرآن، ووصفه بذي الذكر. وقيل في معناه: ذي الشرف، وقيل: ذي التذكير، ذكركم الله به.

وهذين الوصفين لا منافاة بينهما، قال ابن كثير: ((ولا منافاة بين القولين، فإنه كتاب شريف، مشتمل على التذكير، والإعذار، والإنذار)) . (٢)

جواب القسم:

اختلف العلماء في جواب القسم على أقوال:

الأول: أن جواب القسم مذكور، واختلف القائلون بهذا القول في

(١) إرشاد العقل السليم: ٧ / ١٥٨، ١٥٩ .

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٤ / ٢٦. وانظر: جامع البيان: ٢٠ / ٨، السعدي: ٦٥٥، أضواء البيان: ٧ /٨ .

تعيينه .

فمن قائل: إن جواب القسم قوله تعالى: M 3 4 5 6 7 8 L 8 7 6 5 4 3 L [ص: ٦٤]، ومن قائل: M إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ L [ص: ١٤]، ومن قائل: M . / 0 1 2 3 4 5 6 7 L [ص: ٣]، وقيل غير ذلك[١] .

وقد ضعف القول الأول: الفراء، واختار الثالث .[٢]

والقول بأن جواب القسم مذكور ضعفه بعض أهل العلم، قال أبو حيان بعد ذكره لهذه الأقوال: ((وهذه الأقوال يجب اطراحها)) .[٣]

القول الثاني: أن جواب القسم محذوف، واختلف هؤلاء في تقديره . فمنهم من قال: لقد جاءكم الحق . ومنهم من قال: إنه لمعجز، وهذا قول الزمخشري[٤]. ومنهم من قال: ما الأمر كما تزعمون، وهذا الأخير قول قتادة، واختاره ابن جرير، والنحاس، وابن عطية ، والشنقيطي .[٥]

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٨ / ١٢٤، التبيان في أيمان القرآن: ١٥، البحر المحيط: ٩ / ١٣٥ .

(٢) انظر: معاني القرآن: ٢ / ٣٩٧ .

(٣) البحر المحيط: ٩ / ١٣٦، وانظر كلام ابن القيم في تضعيف هذه الأقوال، التبيان في أيمان القرآن: ١٥، ١٦.

(٤) انظر: الكشاف: ٩١٨ .

(٥) انظر: جامع البيان: ٢٠ / ١٠،معاني القرآن: ٦ / ٧٧، المحرر الوجيز: ٢ / ٤١٦، أضواء البيان: ٧ / ٩ .

الثالث: أن مثل هذا القسم لا يحتاج إلى جواب، لكون جوابه معلومًا، قال ابن القيم: ((وتارة يحذف الجواب وهو مراد، إما لكونه قد ظهر وعُرف: إما بدلالة الحال، أو بدلالة السياق .

وأكثر ما يكون هذا إذا كان في نفس المقسم به ما يدل على المقسم عليه، وهي طريقة القرآن، فإن المقصود يحصل بذكر المقسم به، فيكون حذف المقسم عليه أبلغ وأوجز)) .

ثم قال: ((فمن هذا قوله تعالى M ! ' # $ % L فإن في المقسم به من تعظيم القرآن، ووصفه بأنه ذو الذكر - المتضمن لتذكير العباد ما يحتاجون إليه - وللشرف، والقدر ما يدل على المقسم عليه، وهو كونه حقًا من عند الله، غير مفترى كما يقوله الكافرون.

وهذا معنى قول كثير من المفسرين - متقدميهم ومتأخريهم -: إن الجواب محذوف، تقديره: إن القرآن لحق . وهذا مطرد في كل ما شأنه ذلك)) .[١]

وهذا القول - الثالث - قريب من قول من قال: إنه محذوف، تقديره: ما الأمر كما يقول الكفار.

والذي أراه صواباً، ويجمع هذه الأقوال، ويدل عليه استقراء القرآن، ما ذكره الشنقيطي، بقوله: ((الذي يظهر صوابه بدليل استقراء القرآن: أن جواب القسم محذوف، وأن تقديره: والقرآن ذي الذكر ما الأمر كما يقوله

(١) التبيان في أيمان القرآن: ١٤، ١٥، واختار هذا القول السعدي: تيسير الكريم الرحمن: ٦٥٥ .

الكفار، وأن قولهم المقسم على نفيه شامل لثلاثة أشياء متلازمة .

الأول منها: أن النبي r مرسل من الله حقًا، وأن الأمر ليس كما يقول الكفار في قوله تعالى عنهم:M ! " # $ % L [الرعد: ٤٣].

والثاني: أن الإله المعبود جل وعلا واحد، وأن الأمر ليس كما يقوله الكفار في قوله تعالى عنهمM E F G H J K L M L [ص: ٥].

والثالث: أن الله جل وعلا يبعث من يموت، وأن الأمر ليس كما يقوله الكفار في قوله تعالى عنهم: M s t u v x y z { | L [النحل: ٣٨])) .[1]

وجه التناسب بين القسم وجوابه:

أقسم تعالى بالقرآن، وهو أعظم دليل على صدق رسوله r ، ووصفه بذي الذكر، أي: أنه مشتمل على التذكير، فهو مذكر لهم بصدق رسوله r ، وبإثبات تفرده تعالى بالعبادة، وبتحقق البعث، ومذكر لهم بكل أصول الدين وفروعه .

فأعرضوا عنه، تكبرًا وعنادًا، مع علمهم بصدقه، فلو تدبروا هذا القرآن لتبين لهم مقدار حاجتهم إليه .

قال السعدي: ((المذكر للعباد، كل ما يحتاجون إليه من العلم بأسماء الله وأفعاله، ومن العلم بأحكام الله الشرعية، ومن العلم بأحكام المعاد

(١) أضواء البيان: ٧ / ٩، ١٠ .

والجزاء، فهو مذكر لهم في أصول دينهم وفروعه)) . [١]

وقال أيضا: ((فإذا كان القرآن بهذا الوصف، علم أن ضرورة العباد إليه فوق كل ضرورة، وكان الواجب عليهم تلقيه بالإيمان، والتصديق، والإقبال على استخراج ما يتذكر به منه . فهدى الله من هدى لهذا، وأبى الكافرون التصديق به، وبمن أنزله)) . [٢]

- ويمكن أن يقال: إن السبب في عدم إيمان هؤلاء المشركين، وإعراضهم عن اتباع ما جاء به رسول الله r ، وتكذيبه فيما أخبرهم به، إن السبب في ذلك: طلبهم للعزة والرفعة – زعموا – كما أخبر بذلك تعالى في قوله: M ') (* + , L فأقسم تعالى بالقرآن ذي الذكر، أي: ذي الشرف، فهو ذو شأن ومكانة، ومن طلب العزة والمكانة العالية فهي في اتباع هذا القرآن ذي الشرف والمكانة .

٣ . القسم بالكتاب المبين في موضعين:

أ . قال تعالى: M P Q R S T U V W X Y Z L . [الزخرف: ١-٣] .

أقسم تعالى بالكتاب المبين، والمراد بالمبين: البين الواضح، الجلي المعاني والألفاظ [٣] .

---

(١) تيسير الكريم الرحمن: ٦٥٥ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم: ٤ / ١٢٢ .

وعدم تقييده بكونه مبينًا لأي شيء، يدل على أنه مبين لكل شيء . [1]

جواب القسم:

قوله تعالى: M U V W X Y Z L .

أقسم تعالى بالكتاب المبين على إنزاله قرآناً عربيًا . [2]

وجملة: M \ [^ _ ` a b L إما أن تكون معطوفة على قوله تعالى: M U V W X L فتكون من ضمن جواب القسم، وإما أن تكون مستأنفة مقررة لرفعة شأن القرآن . [3]

وجه التناسب بين القسم وجوابه:

المقسم به هو القرآن المبين، ومن بيانه إنزاله بأفصح اللغات .

قال الزمخشري: ((وهو من الأيمان الحسنة البديعة، لتناسب القسم والمقسم عليه، وكونهما من واد واحد)) . [4]

- ووجه آخر: يشير إليه قوله تعالى: M Y Z L ففي القسم بالكتاب المبين إقامة للحجة على هؤلاء المعاندين، وبيان أنهم لو تدبروا، وأعملوا عقولهم لهدتهم إلى التصديق بهذا القرآن البين، فهو بين لمن تدبر وعقل، ففي هذا القسم تعريض بهم .

قال ابن عاشور: ((والغرض: التعريض بأنهم أهملوا التدبر في هذا

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن: ٧٠٨ .

(٢) انظر: جامع البيان: ٢٠ / ٥٤٥ .

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم: ٨ / ٣٩ .

(٤) الكشاف: ٩٨٤ . وانظر: التحرير والتنوير: ٢٥ / ١٥٩ . وتيسير الكريم الرحمن: ٧٠٨ . .

الكتاب، وأن كماله في البيان والإفصاح تستأهل العناية به لا الإعراض عنه، فقوله: M Y Z L مشعر بأنهم لم يعقلوا .

والمعنى: أنا يسرنا فهمه عليكم لعلكم تعقلون، فأعرضتم ولم تعقلوا معانيه، لأنه قد نزل مقدار عظيم لو تدبروه لعقلوا، فهذا الخبر مستعمل في التعريض على طريقة الكناية)).[١]

- ووجه آخر: أن الله أقسم على أنه جعل القرآن عربيًا، واضح الدلالة على طريق الحق، ومبينًا طريق الباطل .

وهذا ما أشار إليه وصف القرآن بكونه مبينًا، فقد أبان كلا الطريقين لو كانوا يعقلون .

قال البيضاوي: ((ولعل إقسام الله بالأشياء استشهاد بما فيها من الدلالة على المقسم عليه، وبالقرآن من حيث إنه معجز مبين لطرق الهدى، وما يحتاج إليه في الديانة)) .[٢]

ب . قال تعالى: M ! " # $ % & ' ( ) * , - . L . [الدخان: ١-٣].

جواب القسم:

M & ' ( ) * , - . L .

أقسم تعالى بالكتاب المبين أنه أنزله في ليلة مباركة [٣] .

(١) التحرير والتنوير: ٢٥ / ١٦١ ،

(٢) أنوار التنزيل: ٥ / ٥٧ .

(٣) جمهور أهل التفسير على أن المراد بالليلة المباركة: ليلة القدر، وهو ما رجحه جمع من المحققين .
=

وقوله تعالى: M , - . . L . تعليل لقوله تعـالى: M & ') ((* L .[1]

وذهب البعض إلى أن قوله تعالى: M & ') (* L وصـف للكتـاب، وأنهـا جملـة اعتراضـية، وأن جـواب القسـم قولـه تعـالى: M , - . L .[2]

وجه التناسب بين القسم وجوابه:

أقسم بالقرآن المبين على إنزال القرآن الكريم من قبل الله في ليلة مباركة، ومن جملة بيانه أنه أنزلـه تعـالى في هـذه الليلـة المباركـة، ذات الخـير الكثـير، وجعله دليل صدق رسوله r .

- وجه آخر: أن العلة في إنزال القرآن النـذارة، ولا يتحقـق ذلـك إلا أن يكون الكتاب المنذر به واضحًا بينًا، يفهمـون ألفاظـه ومعانيـه، ولـذا أقسم بكتابه موصوفًا بأنه مبين.

٤ . القسم بالقرآن موصوفًا بالمجيد:

قال تعالى: M ! " # $ L [ق: ١] .

أقسم تعالى بالقرآن المجيد، أي: الكريم الشريف، وسمي بهذا الاسم: إما لأنه كلام المجيد سبحانه، أو لأنه ذو المجد والشرف على سائر الكتـب،

= انظر: جامع البيان: ٢١ / ٦، الجامع لأحكام القرآن: ١٩ / ١٠٠، تفسير القرآن العظيم: ٤ / ١٣٧، أضواء البيان: ٧ / ٣١٩ .

(١) انظر: الكشاف: ٩٩٨ .

(٢) انظر: المحرر الوجيز: ١٣ / ٣٦٢، أنوار التنزيل: ٥ / ٦٥، إرشاد العقل السليم: ٨ / ٥٨ .

أو لأن من اتبعه وعمل بما فيه مجد عند الله تعالى .[١]

جواب القسم:

اختلف في جواب القسم على نحو مما سبق ذكره في سورة ص، على ثلاثة أقوال:

الأول: أنه مذكور، واختلف هؤلاء في تعيينه، فمنهم من قال هو قوله: M 1 2 3 4 5 6 7 8 L، وقيل: M : ; < = L، وقيل: M& ') (* + L، وقيل: M مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ L .[٢]

قال ابن عطية: ((وفي هذه الأقوال تكلف، وتحكم على اللسان)) .[٣]

الثاني: أنه محذوف، واختلفوا في تقديره، فذهب الأخفش، والمبرد، والفراء، والزجاج إلى أنه محذوف، يدل عليه قوله تعالى: M 2 3 4 5 L أي: والقرآن المجيد إنكم لمبعوثون . واستحسن هذا القول ابن عطية، وبه قال أبو حيان .[٤]

واختار الشنقيطي - ما سبق واختاره في تقدير جواب القسم في سورة (ص) - أنه محذوف مشتمل على ثلاثة أمور: كون الرسول r مرسل من

---

(١) انظر: الكشاف: ١٠٤٣، البرهان في علوم القرآن: ١ / ٣٧٦، أنوار التنزيل: ٥ / ٩٠ .

(٢) انظر: جامع البيان: ٢١ / ٤٠١، المحرر الوجيز: ١٣ / ٥٢٥، الجامع لأحكام القرآن: ١٩ / ٤٢٧، البحر المحيط: ٩ / ٥٢٨ .

(٣) المحرر الوجيز: ١٣ / ٥٢٥ .

(٤) انظر: معاني القرآن للفراء: ٣ / ٧٥، معاني القرآن للزجاج: ٥ / ٤١، المحرر الوجيز: ١٣ / ٥٢٥، الجامع لأحكام القرآن: ١٩ / ٤٢٨، البحر المحيط: ٩ / ٥٢٨ .

ربه، وصادق فيما جاء به، وإثبات تفرد الله تعالى بالعبادة، وإثبات البعث والنشور . (١)

القول الثالث: أن جواب القسم مضمن في المقسم به . قال ابن القيم: ((وههنا قد اتحد المقسم به والمقسم عليه، وهو: القرآن . فأقسم بالقرآن على ثبوته وصدقه، وأنه حق من عنده، ولذلك حذف الجواب ولم يصرح به، لما في القسم من الدلالة عليه، ولأن المقصود نفس المقسم به)) . (٢)

والصواب – إن شاء الله – ما ذهب إليه الشنقيطي، لدلالة سياق الآيات عليه .

وجه التناسب بين القسم وجوابه:

أقسم تعالى بالقرآن المجيد على تفرده بالعبادة، وعلى صدق رسوله r ، وعلى إثبات البعث والنشور .

فإقسامه بالقرآن المجيد فيه تنويه بشأن القرآن، الذي بلغ به أعلى مراتب الشرف والكمال في ألفاظه ومعانيه، فهو دليل صدق القرآن، وإذا ثبت هذا ثبت ما فيه من المعاني: من توحيد الله، و صدق الرسول r ، والبعث والنشور، وغيرها من أصول الدين .

فوصف القرآن بأنه مجيد موجب لاتباعه، والعمل بما فيه .

قال السعدي: ((والمجد: سعة الأوصاف وعظمتها، وأحق كلام

---

(١) انظر: أضواء البيان: ٩ / ٦٤٣ . واختاره ابن كثير: ٤ / ٢٢١، و ابن عاشور: التحرير والتنوير: ٢٦ / ٢٧٧.

(٢) التبيان في أيمان القرآن: ٦٤٣ .

يوصف بذلك هذا القرآن، الذي قد احتوى على علوم الأولين والآخرين، الذي حوى من الفصاحة أكملها، ومن الألفاظ أجزلها، ومن المعاني أعمها وأحسنها، وهذا موجب لكمال اتباعه، وسرعة الانقياد له، وشكر الله على المنة به، ولكن أكثر الناس لا يقدر نعم الله قدرها)) . [(١)]

- ووجه آخر: وهو ما يشير إليه وصف القرآن: بأنه مجيد، فله المجد في الفصاحة والبلاغة، حتى عجز القوم عن الإتيان بمثل سورة منه، فإعجازه دليل صدقه، وصدق ما تضمنه .
- ووجه آخر: أن من معاني وصف القرآن بأنه مجيد: أن من اتبعه، وعمل بما فيه كان مجيدًا عند الله تعالى، والكفار لم يقبلوا دعوة الرسول r ابتغاء المجد، والمجد كل المجد في اتباع ما جاء به القرآن المجيد .

(١) تيسير الكريم الرحمن: ٧٤٦ .

المبحث الرابع: القسم بعمر الرسول r

قال تعالى: M) (* + , L [الحجر: ٧٢].

أقسم تعالى بقوله: M) L .

والمقصود به - في قول أكثر المفسرين – حياة الرسول r .

قال ابن العربي: ((قال المفسرون بأجمعهم: أقسم الله هنا بحياة محمد r)).[1]

وذهب البعض إلى أنه قسم بحياة لوط u ، وهذا اختيار الزمخشري[2]، وإليه مال ابن العربي [3]، ونقله القرطبي عن ابن العربي واستحسنه [4]، واختاره أبو حيان [5] .

وهذا قول مردود مخالف ما عليه السلف، وقد رد هذا القول ابن القيم[6]،والألوسي [7].

(١) أحكام القرآن: ٣ / ١٠٥ . وممن نقل الإجماع على ذلك: ابن القيم، والقرطبي . التبيان في أيمان القرآن: ٦٤٩، الجامع لأحكام القرآن: ١٢ / ٢٢٩ .

(٢) الكشاف: ٥٦٤ .

(٣) أحكام القرآن: ٣ / ١٠٥ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن: ١٢ / ٢٢٩ .

(٥) البحر المحيط: ٦ / ٤٨٩ .

(٦) التبيان في أيمان القرآن: ٦٤٩، ٦٥٠ .

(٧) روح المعاني: ١٤ / ٧٢ .

جواب القسم: M (* + , L .

اختلف في مرجع الضمير، فذهب ابن جرير إلى أن المقصود به كفار قريش .[(١)]

والذي يدل عليه سياق الآيات أن الضمائر لقوم لوط، قال ابن عطية: ((والضمائر في M + L يراد بها قوم لوط المذكورون، وذكر الطبري أن المراد قريش، وهذا بعيد ؛ لأنه ينقطع مما قبله ومما بعده)) .[(٢)]

وعليه فتكون هذه الجملة اعتراضية .[(٣)]

وجه التناسب بين القسم وجوابه:

المقسم به حياة الرسول r ، ولا شك أن حياته وعمره من أشرف الأعمار وأطهرها وأزكاها، فليس فيها شيء من الضلال والغواية والهوى، لا قبل مبعثه ولا بعده، فهو قدوة في الطهر والعفاف، واستقامة الفطرة .

ولذلك ناسب أن يقسم بهذه الحياة الشريفة على تحيّر هؤلاء الذين انتكست فطرهم، وانغمسوا في شهواتهم، واتبعوا أهواءهم، فهم لا يهتدون .

فهو قسم بالحياة الحقيقية، وهي حياته r ، على خسران حياة هؤلاء الكفار .

(١)انظر: جامع البيان: ١٤ / ٩١ .

(٢)المحرر الوجيز: ٨ / ٣٤١ .

(٣) انظر: التحرير والتنوير: ١٤ / ٦٧ .

المبحث الخامس: القسم بالسماء ذات الحبك

قال تعالى: M ! " # $ % & ') (L [الذاريات: ٧-٨] .

أقسم تعالى بالسماء ذات الحبك . أي: ذات الخلق الحسن، وقيل: ذات الزينة، وقيل: ذات النجوم، وقيل: ذات الطرائق، وقيل: ذات الشدة، وقيل: ذات الخلق المستوي، وقيل: متقنة البناء .

وهذه الأقوال لا تناقض بينها، بل الآية محتملة لكل هذه الأقوال . (١)

جواب القسم:

M % & ') (L . أي: إنكم أيها المشركون في قول مختلف، متناقض في شأن رسول الله r ، وفي شأن القرآن الكريم . (٢)

وجه التناسب بين القسم وجوابه:

تشبيه اختلاف مذاهبهم، وآرائهم، ومواقفهم من القرآن، ومن الرسول r ، باختلاف طرائق السماء .

قال البيضاوي: ((ولعل النكتة في هذا القسم: تشبيه أقوالهم في اختلافها، وتنافي أغراضها، بطرائق السموات في تباعدها، واختلاف غاياتها)) . (٣)

---

(١) انظر: مجاز القرآن: ٢ / ٢٢٥، جامع البيان: ٢١ / ٤٨٦، معاني القرآن للزجاج: ٥ / ٥٢، المحرر الوجيز: ١٤ / ٦، التبيان في أيمان القرآن: ٤٣٤، تفسير القرآن العظيم: ٤ / ٢٣٢، أضواء البيان: ٧ / ٦٦٢-٦٦٤ .

(٢) انظر: التبيان في أيمان القرآن: ٤٣٧ .

(٣) أنوار التنزيل: ٥ / ٩٥ . وانظر: نظم الدرر: ٧ / ٢٧٢، ٢٧٣، والتحرير والتنوير: ٢٦ / ٣٤٠.

- وقد ذهب أبو السعود إلى غير هذا، وضعف ما ذهب إليه البيضاوي، حيث يقول: ((وفى هذا الجواب تأييد لكون الحبك عبارة عن الاستواء، كما يلوح به ما نقل عن الضحاك، من أن قول الكفرة لا يكون مستويًا، إنما هو متناقض مختلف .

وقيل: النكتة في هذا القسم تشبيه أقوالهم في اختلافها، وتنافي أغراضها، بطرائق السموات في تباعدها، واختلاف غاياتها . وليس بذاك)). (١)

قلت: وفي تضعيف هذا القول نظر، فإن ما قيل في تفسير الحبك متداخل – كما سبق ذكره – ويتلخص في: حسن خلق السماء، واستوائها، وإتقان بنيانها، وإحكامه، وتزيينها بالنجوم .

والمتأمل في أقوال الكفار يجدها مضطربة، متناقضة، وهذا يدل على فسادها، وعدم شدتها وإحكامها، وقبحها . فنشأ عن اختلاف أقوالهم: الاضطراب، والفساد، والكذب، والقبح، وهذا كله ينافي ما ورد في وصف المقسم به، من الحبك .

فالتناسب بطريق التقابل والتضاد .

---

(١) إرشاد العقل السليم: ٨ / ١٣٧ .

المبحث السادس: القسم بالنجوم ومواقعها

أقسم تعالى بالنجوم في موضع وبمواقعها في موضع آخر:

١ . القسم بالنجم إذا هوى .

قال تعالى: M ! " # $ % & ' ( ) L [النجم: ١-٢] .

أقسم تعالى بالنجم إذا هوى، وقد اختلف في المراد بالنجم على أقوال، منها: أنه الثريا إذا سقطت، وهذا اختيار ابن جرير . وقيل: هو الجملة من القرآن إذا نزلت، وهذا قول الفراء . وقيل: النجم اسم جنس، والمراد النجوم، وهذا قول أبي عبيدة، ومعنى (هوى) على هذا القول: هوى للغروب، وهذا قول جمهور المفسرين . وقيل: إذا انتثرت يوم القيامة . وقيل: النجوم التي تُرمى بها الشياطين إذا سقطت في آثارها عند استراق السمع، وهذا ما ستظهره ابن القيم، ومال إليه ابن كثير .[1]

وقد ذهب الشنقيطي إلى أن المراد بالنجم: النجوم، إلا أنه يخالف في معنى (هوى)، حيث يقول: ((أظهر الأقوال عندي وأقربها للصواب في نظري: أن المراد بالنجم إذا هوى هنا في هذه السورة، وبمواقع النجوم في الواقعة هو: نجوم القرآن التي نزل بها الملك نجمًا فنجمًا، وذلك لأمرين أحدهما: أن هذا الذي أقسم الله عليه بالنجم إذا هوى الذي هو أن النبي r

(١) انظر: معاني القرآن للفراء: ٣ / ٩٤، مجاز القرآن: ٢ / ٢٣٥، جامع البيان: ٢٢ / ٥، المحرر الوجيز: ١٤ / ٨٠، التبيان في أيمان القرآن: ٣٥٧، ٣٦٣، تفسير القرآن العظيم: ٤ / ٢٤٦ .

على حق، وأنه ما ضل وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى موافق في المعنى لما أقسم عليه بمواقع النجوم، وهو قوله: M ! " # $ % & ' L .

والإقسام بالقرآن على صحة رسالة النبي r ، وعلى صدق القرآن العظيم، وأنه منزل من الله جاء موضحًا في آيات من كتاب الله، وخير ما يفسر به القرآن القرآن .

والثاني: أن كون المقسم به المعبر بالنجوم هو القرآن العظيم أنسب لقوله بعده: M وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ L ، لأن هذا التعظيم من الله يدل على أن هذا المقسم به في غاية العظمة، ولا شك أن القرآن الذي هو كلام الله أنسب لذلك من نجوم السماء ونجم الأرض)).[1]

وفيما ذكر الشنقيطي – رحمه الله – نظر من وجوه:

الأول: أن الله تعالى أقسم على صدق القرآن، وعلى صدق رسوله r بغير القرآن، قال تعالى: M S T U L [الطارق: ١١]، وقوله: M Z [\ L [التكوير: ١٥] ، وقوله: M 2 3 4 5 L [الحاقة: ٣٨]، وقوله: M Y [\ ] L [القلم: ١] .

الثاني: أن لفظ النجوم في القرآن الكريم يراد بها الكواكب، قال تعالى: M E F G H I J K L [الأنعام: ٩٧]، وقال: M وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ à ٱلنُّجُومِ L [الطور: ٤٩]، وقال: M x y z L [المرسلات: ٨]،

(١) أضواء البيان: ٧ / ٧٠٠، ٧٠١ .

ويقرنها مع الكواكب الأخرى كما في قوله تعالى: M h i j k l L [الأعراف: ٥٤].

جواب القسم:

M% & ' ( ) L.

هذا هو جواب القسم، وهو بيان صدق الرسول **r** فيما جاء به من ربه، وأنه ما ضل عن الحق بجهل، ولا عدل عنه بقصد.[1]

وجه التناسب بين القسم وجوابه:

من وجوه يشير إليها قوله تعالى: M X Y Z [\ ] ^ _ L [الملك: ٥]، وقوله تعالى: M - . / 0 1 L [النحل: ١٦].

الأول: أن النجم يهتدى به، وكذلك هذا القرآن العظيم يهتدى به.

قال ابن القيم: ((إن النجوم جعلها الله يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، وآيات القرآن يهتدى بها في ظلمات الجهل والغي. فتلك هداية في الظلمات الحسية، وآيات القرآن في الظلمات المعنوية فجمع بين الهدايتين))[2].

الثاني: النجوم جعلت زينة للسماء، وكذلك القرآن زينة لمن عمل به.

قال ابن القيم: ((مع ما في النجوم من الزينة الظاهرة للعالم، وفي إنزال

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم: ٤ / ٢٤٦، ٢٤٧.

(٢) التبيان في أيمان القرآن: ٣٢٢. وقد أشار إلى هذا الوجه أبو السعود في تفسيره: ٨ / ١٥٤.

القرآن من الزينة الباطنة)) . [١]

الثالث: جعل الله النجوم رجومًا للشياطين، وكذلك آيات القرآن .

قال ابن القيم: ((مع ما في النجوم من الرجوم للشياطين، وفي آيات القرآن من رجوم شياطين الإنس والجن)) . [٢]

الرابع: جعل النجوم رجومًا للشياطين يفيد معنى آخر، وهو حفظ هذا القرآن من التحريف، ومن إدخال ما ليس منه فيه .

قال ابن القيم: ((وبين المقسم به والمقسم عليه من التناسب مالا يخفى، فإن النجوم التي تُرمى بها الشياطين آيات من آيات الله، يحفظ بها دينه، ووحيه، وآياته المنزلة على رسوله، فبها ظهر دينه، وشرعه، وأسماؤه، وصفاته، وجعلت هذه النجوم المشاهدة خدمًا وحرسًا لهذه النجوم الهادية)) . [٣]

الخامس: مشابهة حال النجم إذا هوى، بنزول آيات القرآن .

قال ابن القيم: ((والنجوم آياته المشهودة العيانية، والقرآن آياته المتلوة السمعية، مع ما في مواقعها عند الغروب من العبرة والدلالة على آياته القرآنية ومواقعها عند النزول)) . [٤]

---

(١) المرجع السابق: ٣٢٣ . وقد أشار إلى هذا الوجه السعدي في تفسيره: ٧٦٠ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق: ٣٦٤ .

(٤) المرجع السابق: ٣٢٣ . وقد اشار إلى هذا ابن عاشور في تفسيره: ٢٧ / ٩١ .

٢ . القسم بمواقع النجوم:

قال تعالى: M﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦﴾ !

" # L [الواقعة: ٧٥-٧٧]

أقسم تعالى بمواقع النجوم، واختلف في المراد بها على قولين:

الأول: آيات القرآن، ومواقعها: نزولها شيئًا بعد شيء . وهذا اختيار الشنقيطي .[١]

الثاني: أن النجوم هي: الكواكب المعروفة، وهو قول جمهور المفسرين[٢] .

وقد اختلف هؤلاء في المراد بمواقعها، فقيل: مساقطها عند غروبها، وهذا اختيار أبي عبيدة، وابن جرير، وابن القيم . وقيل: انكدارها يوم القيامة . وقيل: مواضعها في السماء . وقيل: مواقعها عند الانقضاض على الشياطين حين تسترق السمع . وقيل: الأنواء التي كان أهل الجاهلية ينسبون إليها نزول المطر، وعلى هذا القول يكون قوله تعالى: M**﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾** L مستعملاً في حقيقة نفي القسم .[٣]

والذي يظهر هو: ما اختاره أبو عبيدة، وابن جرير، وابن القيم: من أن المقصود بمواقعها: مساقطها عند الغروب .[٤]

---

(١) انظر: أضواء البيان: ٧ / ٧٠٠ . وقد سبق ذكر كلامه في سورة النجم .

(٢) انظر: المحرر الوجيز: ١٤ / ٢٦٧ .

(٣) انظر: مجاز القرآن: ٢ / ٢٥٢، جامع البيان: ٢٢، ٣٥٩، المحرر الوجيز: ١٤ / ٢٦٧، التبيان في أيمان القرآن: ٣٢٢، تفسير القرآن العظيم: ٤ / ٢٩٨ .

(٤) احتج ابن القيم لهذا القول بحجج . انظر: التبيان في أيمان القرآن: ٣٢٢ .

جواب القسم:

M ! " # L . أقسم تعالى على إثبات القرآن، ووصفه بأنه كريم، كثير الخير .[١]

وجه التناسب بين القسم وجوابه:

سبق بيان ما بين الإقسام بالنجوم والإقسام على القرآن من تناسب، في سورة النجم .

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن: ٧٧٦ .

المبحث السابع: القسم بالعصر.

قال تعالى: M ! " # $ % & ' ( ) (* +
, - . . / 0 1 L . [العصر: ١-٣]

أقسم تعالى بالعصر، وقد اختلف في المراد بالعصر في هذه الآية، فقيل: الدهر، وهو قول أكثر المفسرين، وهو الأشهر. وقيل: العشي. وقيل: صلاة العصر. (١)

جواب القسم:

M# $ % & L .

هذا هو جواب القسم، والمراد بالإنسان: جنس الإنسان، ولذا استثنى منه الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

وجه التناسب بين القسم وجوابه:

أقسم تعالى بالعصر، الذي هو الدهر، زمن أعمال الإنسان وأفعاله، على أن كل إنسان في خسر، إلا من عمرَ هذا الزمن بالإيمان، وعمل الصالحات، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر.

قال ابن القيم: ((فأقسم بالعصر الذي هو زمان أفعال الإنسان ومحلها على عاقبة تلك الأفعال وجزائها، ونبه بالمبدأ وهو خلق الزمان والفاعلين وأفعالهم على المعاد، وأن قدرته كما لم تقصر عن المبدأ لم تقصر عن المعاد،

---

(١) انظر: جامع البيان: ٢٤ / ٦١٢، الجامع لأحكام القرآن: ٢٢ / ٤٦٣، تفسير القرآن العظيم: ٤ / ٥٤٧.

وأن حكمته التي اقتضت خلق الزمان وخلق الفاعلين وأفعالهم - وجعلها قسمين خيرًا وشرًا - تأبى أن يسوي بينهم، وأن لا يجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، وأن يجعل النوعين رابحين أو خاسرين، بل الإنسان من حيث هو إنسان خاسر، إلا من رحمه الله، فهداه ووفقه للإيمان والعمل الصالح في نفسه، وأمر غيره به)) .[1]

(١) التبيان في أيمان القرآن: ١٣٤ . وانظر: تيسير الكريم الرحمن: ٨٦٣ .

الخاتمة

كانت هذه محاولة – حسب الجهد والاستطاعة - لإدراك وجه التناسب بين القسم وجوابه، خرجت منها بنتائج، منها:

١. أن إدراك وجه التناسب بين القسم وجوابه يتوقف على عدة أمور منها: معرفة مقاصد القرآن، وموضوعات السورة، وسياق الآيات، وطريقة القرآن في عرض الموضوعات، وفهم معاني المقسم به ودلالتها .
٢. الأصل في التناسب أنه مبني على الاجتهاد، فلا يقطع بأن هذا هو المراد دون ماسواه.
٣. أن إدراك المناسبة بين القسم وجوابه فضل من الله ونعمة، فمن تبين له شيء من ذلك – دون تكلف – قال به، وإلا وجب عليه الإمساك عن القول بغير علم .
٤. أكثر المواضع الوارد فيها القسم المفرد يكون القسم: بالله أو بشيء من صفاته، وورد في أربعة مواضع بمخلوقات الله .
٥. أقسم تعالى بلفظ الجلالة على تفرده بالإلهية، واستحقاقه للعبودية .
٦. أقسم تعالى بربوبيته خمس مرات، فأقسم بربوبيته مضافة إلى ضمير المخاطب: رسول الله r في ثلاثة مواضع، وكلها متضمنة تصديق رسوله r ، والرد على المكذبين له والمعترضين عليه .

وأقسم في موضع بربوبيته للسماء والأرض، وفي موضع آخر أقسم بربوبيته للمشارق والمغارب على قدرته تعالى، وعلى الجزاء، والبعث .

٧. أقسم سبحانه بالقرآن موصوفًا في موضع: بالحكيم، وفي موضع: بذي الذكر، وفي موضعين: بالمبين، وفي موضع: بالمجيد .

وفي كل موضع أقسم بما يناسب جواب القسم .

٨. أقسم تعالى بأشرف الأعمار: عمر رسول الله r على خسران من اتبع هواه، وانغمس في شهواته .

٩. أقسم جل وعلا بالنجوم وبمواقعها على علو قدر القرآن، ورفعة شأنه .

١٠. أقسم تعالى بالسماء ذات الحبك على اختلاف أقوال الكفار واضطرابها.

١١. أقسم تعالى بالعصر على خسران كل عمر لم يعمر بالإيمان، والعمل الصالح .

وأخيرا فهذا جهد المقل، بذلت فيه قصارى جهدي، فما كان فيه من صواب فمن الله، وما كان فيه من خطأ فمن تقصيري، واستغفر الله من ذلك .

والحمد لله أولا و آخرا، وعليه التكلان، ونسأله القبول، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحابته أجمعين .

ثبت المصادر والمراجع

١. الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، مكتبة المعارف، الرياض، ط الأولى.

٢. أحكام القرآن، لابن العربي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى٠ .

٣. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (تفسير أبي السعود)، دار إحياء التراث العربي، بيروت .

٤. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشنقيطي، وتتمة تلميذه الشيخ: عطية محمد سالم، طبع على نفقة صاحب السمو الملكي الأمير / أحمد بن عبد العزيز، ١٤٠٣هـ .

٥. إمعان في أقسام القرآن، عبد الحميد الفراهي، دار القلم، دمشق، ط الأولى.

٦. أنوار التنزيل، للبيضاوي، دار صادر، بيروت .

٧. البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان الأندلسي، دار الفكر، بيروت، ١٤١٢هـ .

٨. البرهان في علوم القرآن، للزركشي، تحقيق: د. يوسف عبد الرحمن المرعشلي وآخرون، دار المعرفة ، بيروت، ط الثانية .

٩. التبيان في أيمان القرآن، لابن القيم، تحقيق: عبد الله بن سالم البطاطي، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط الأولى .

١٠. تحرير القول السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد (التحرير والتنوير)، محمد الطاهر ابن عاشور، دار سحنون، تونس .

١١. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، مكتبة دار التراث، القاهرة .

١٢. تفسير سورة يس، لابن عثيمين، دار الثريا للنشر، الرياض، ط الأولى .
١٣. تفسير غريب القرآن، لابن قتيبة، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٨هـ .
١٤. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لابن سعدي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط الثانية .
١٥. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لابن جرير الطبري، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، مصر، ط الأولى .
١٦. الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الأولى .
١٧. دفع إيهام اضطراب عن آيات الكتاب، للشنقيطي، ضمن أضواء البيان.
١٨. رسالة في زكاة الحلي، لابن عثيمين، دار ابن خزيمة .
١٩. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للألوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت .
٢٠. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، للشوكاني، المكتبة التجارية، مكة المكرمة، ط الأولى .
٢١. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، للزمخشري، دار المعرفة، بيروت، ط الثانية .
٢٢. مجاز القرآن، لأبي عبيدة، علق عليه: د . محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي، مصر .
٢٣. محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، دار الفكر، بيروت، ط الثانية .
٢٤. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية، طبع على نفقة

الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني . قطر .

٢٥. معاني القرآن، للفراء، عالم الكتب، بيروت، ط الثالثة .

٢٦. معاني القرآن وإعرابه، للزجاج، تحقيق: د. عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، ط الأولى .

٢٧. مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، للرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى .

٢٨. المفردات، للراغب الأصفهاني، دار الفكر، بيروت .

٢٩. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للبقاعي، دار الكتب العلمية، بيروت،ط الأولى .

٣٠. النكت والعيون، للماوردي، مكتبة المؤيد، الرياض، ط الأولى .